

المجلد 03 Vol 03 العدد 02 Num 02	حفريات المعرفة Hafriyat Al- marefa	Issn : 2830-912X 2023
--	---	-------------------------------------

تأثير الفكر العربي وإعادة صياغة مفاهيم جديدة دراسة في نماذج روائية مختارة

Furnishing Arab Thought and Reformulating New Concepts
A Study of Selected Novelistic Models

نسرين بعيسي.

Nesrine Baissi

Nesrine.baissi@univ-biskra.dz

جامعة بسكرة - الجزائر

University of Biskra - Algeria

الملخص:

أخذت الرواية العربية الجديدة على عاتقها مسؤولية التعبير عن تحولات الذات الفردية والجماعية في سياقات حضارية مركبة، حيث وجدت نفسها في مواجهة أسئلة الهوية والانتماء والنهضة والحداثة والاعتراق، وغيرها من القضايا التي تمس جوهر الوعي الإنساني العربي. فالرواية بوصفها جنسا أدبيا مرنا، كانت شاهدة على صيرورة الإنسان العربي وتحولاته، وسعت إلى صياغة وعي حضاري جديد من خلال مساءلة الماضي واستشراف

المستقبل. وانطلاقاً من هذا الأفق، تسعى دراستنا إلى مساءلة الكيفيات التي أسهمت من خلالها الرواية العربية في بناء وعي حضاري نقدي يتجاوز التلقي السطحي نحو فهم معمق للتاريخ والواقع والإنسان. وعلى هذا الأساس جاءت دراستنا المعنونة بـ: "تأثير الفكر العربي وإعادة صياغة مفاهيم جديدة - دراسة في نماذج روائية مختارة" للبحث في هذا السياق، ومحاولة الإجابة عن: هل نجحت الرواية العربية بوصفها خطاباً ثقافياً مفتوحاً أن تفكك البنى التقليدية، وطرح بدائل فكرية جديدة قادرة على خلق وعي حضاري نقدي؟

الكلمات المفتاحية: رواية، حضارة، وعي، فكر، مفاهيم، ثقافة.

Abstract:

The new Arabic novel has taken upon itself the responsibility of expressing the transformations of the individual and collective self within complex civilizational contexts, confronting profound questions regarding identity, belonging, renaissance, modernity, and alienation. As a flexible literary genre, the novel witnesses the evolution of the Arab individual, seeking to formulate a new civilizational awareness by questioning the past and anticipating the future. From this perspective, this study investigates the methods through which the Arabic novel has contributed to building a critical civilizational consciousness that moves beyond superficial reception towards a deeper understanding of history, reality, and humanity. Titled "Furnishing Arab Thought and Reformulating New Concepts: A Study of Selected Novelistic Models," the research analyzes the discursive structure of selected texts to

answer: Has the Arabic novel succeeded as an open cultural discourse in dismantling traditional structures and offering new intellectual alternatives capable of creating a critical civilizational awareness?

Keywords: Novel, Civilization, Awareness, Thought, Concepts, Culture.

تمهيد:

حاول النشاط الأدبي جاهدا فك قيود الفكر الإنساني من خلال تلك الأيديولوجيات والمعتقدات التي ظلت تطارد فكر الإنسان العربي، باعتباره وسيلة فعالة في تشكيل الوعي وصناعة الهويات ومحاولاته الملحة لجعل الشعوب تدرك ذواتها وتاريخها وثقافتها...

وعلى هذا الأساس الذي وُجد عليه الأدب، اتجه لمحاكاة الحياة الواقعية للإنسان ليوقظه من خذره الفكري والروحي، وليوجه زاوية نظره إلى نقاط مظلمة قد يغفل أو يتغافل عنها الإنسان، موجها بذلك انتباهه لمكامن الخلل في بنيته الاجتماعية والفكرية، مما يحفز التفكير الجمعي باتجاه التغيير والإصلاح وبناء وعي وحضارة إنسانية وهي الغاية التي راهن عليها الأدب.

ولكن، هل للأدب إمكانية في صناعة فكر حضاري يخاطب القضايا الوجودية باعتباره خطاب فني جمالي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال قد يلزمنا التوقف في عدة نماذج روائية متنوعة، وتبعب سبر أغوارها بدءاً بالغاية التي وُجد من أجلها الأدب.

1- مالك بن نبي والدعوة إلى النهضة الحضارية العربية:

يعتبر المفكر الجليل "مالك بن نبي" أحد كبار المفكرين العرب الذين تناولوا موضوع الحضارة في القرن العشرين، إذ سعى إلى وضع مخطط فكري رصين والبحث عن أسباب الانحطاط الحضاري في العالم العربي.

ضاربا مثال حيا بالمرحلة الجاهلية التي سبقت عصر الإسلام، والتي شهدت روائع الأشعار وأن أجمل ما قالته العرب كان في الجاهلية، إلا أن هذا لم يشفع لهم، بل وصفهم القرآن بالجهل والوثنية «من المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهلية على الفترة التي سبقت الإسلام ولم يشفع لهم شعر رائع، وأدب فذ، من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف، لأن التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة، الخالية من كل عنصر خالق أو فكر عميق وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكارا، بل ينصب أصناما» (1)

إذن فالمسألة ليست في الكم أو في جودة النص ، وإنما المرحلة الجاهلية غفلت عن محطة مهمة جدا وهي الرؤية الحضارية والفكر العميق، وأن غياب الوازع الروحي شيء عظيم، مؤكدا أن الفكر الإصلاحي لا يمكن أن يتطور في بيئة تعتمد على الخرافة.

وفي نفس السياق، يوضح "مالك بن نبي" أن مشروع الإصلاح في الجزائر جاء لمحاربة الفساد الفكري والروحي الذي طال المجتمع الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي وتسول البركات في الزوايا وصنعهم لأوهام زائلة لقيت تصديقا جماهيريا.

وفي خضم تلك الظروف الوثنية «أتيح للإصلاح أن يمسك مقاليد النهضة الجزائرية، وأمكنه أن يبعثها خلقا آخر بالروح الإسلامية التي تخلصت من كابوس الأوثان، وكأني بالفكرة الإصلاحية قد بلغت أوجها وانتصرت يوم افتتاح المؤتمر الجزائري عام 1936» (2)

وقد كان هذا حال الجزائر حتى سنة 1925، فكان امتداد الوثنية في الجزائر متمثلاً في ربوع الزوايا ليأتي الناس من كل حذب وصبوب ليأخذوا البركات الوهمية وليتقدموا بالقرايين لأسيادهم حتى ينالوا الرضا والتيسير.

وفي ظل هذا الوضع الراهن الذي عرفته الجزائر، شهدت تلك الفترة محاولات عديدة للإصلاح من قبل النخبة الثقافية والدينية، عاملين على إصلاح العقيدة ومحاربة البدع والانحرافات والجهل، مع إصرارهم على نشر التعليم وإحياء اللغة العربية التي حاول المستعمر طمسها وإلغاءها لصالح اللغة الفرنسية. (3)

«وهكذا أتيح للإصلاح أن يمسك مقاليد النهضة الجزائرية وأمكنه أن يبعثها خلقاً آخر بالروح الإسلامية التي تخلصت من كابوس الأوثان، وكأني بالفكرة الإصلاحية قد بلغت أوجها وانتصرت يوم افتتاح المؤتمر الجزائري عام 1936».

وبهذا أدرك مالك بن نبي أن فكرة تأسيس مشروع حضاري لا تكون بتشديد المباني والعمران؛ بل مشروع متكامل بين الروح والمادة ويكون الإنسان هو المحور الأساسي في المعادلة، كما أكد على أهمية الوازع الديني باعتباره الطاقة المحركة التي تمنح المشروع الحضاري روحه وقيمته العليا.

مؤكداً في جانب آخر أن استعمار الشعوب لا يكون بعبث الساسة ولا أفعالهم بل هو من نفس الإنسان التي تقبلت ذل الاستعمار، ولن ينجو الشعب من ذل المستعمر إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذه وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار أو القابلية للاستعمار (4)

إذا فالمشروع الإصلاحي الحضاري في الجزائر، بدأ من النفس هادفاً في جوهره إلى تغيير فكر الإنسان فبعث فيه روحاً وثابة، أشرقت معها بواذر النهضة الكبرى. ولم يتخلف الأدب الجزائري عن الركب، فبدأ يصور تقدم البلاد في القصائد، حج فيها نشاطه بعد ركود طويل كانت تلك القصائد تغني ربيع النهضة أي ربيع الفكرة لا ربيع الصنم (5)

2- رهان الأدب ورهاب الفكر:

إذا ما اعتبرنا أن الأدب فعل لغوي في شكله العام والشائع؛ إلا أننا لا يمكن تجاوز دوره الأيديولوجي الذي يلعبه مع كل الأجناس الأدبية دون استثناء، وقد كانت للنقاد اللغويين التحليليين نظرتهم أيضا في هذا الصرح، فجعلوا من الأدب ظاهرة مسيرة بقوانينها الذاتية، وهذه القوانين لديهم هي قوانين (لغوية)، وأن الأدب فن (لغوي)، وهو نشاط إنساني يعكس حركة واقع تاريخي اجتماعي محدد (6)

إذ يعدّ الجنس الروائي أكثر الأجناس الأدبية استحضارا لقضايا الأمة، إذ يحاول الأدب جاهدا بلوغ الحقيقة ومكاشفة النفس البشرية الغامضة، معتمدا في ذلك على عدة آليات ومرجعيات من شأنها أن تجعل الأدب في علاقة تكاملية مع الميادين الأخرى (تاريخية، دينية، فلسفية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، سياسية...)، «وعلى هذا فإن النوع الأدبي محكوم في نشأته وتطوره بوضع تاريخي اجتماعي محدد، ومحكوم في طبيعته وطاقاته ووظيفته بالوفاء بحاجات اجتماعية معينة يحددها ذلك الوضع التاريخي الاجتماعي الذي أثمر هذا النوع» (7)

ولهذا عرف الأدب بدوره الفني الجمالي والفكري الحضاري، فلا يمكن أن يغيب الفن ويحضر الفكر والعكس صحيح.

إن تأسيس فكر حضاري وإعادة تأيث ركاه أمر عظيم ولا شك؛ فالقوى الخفية بين سطور الأدب لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها، إذ يعمل الأديب على تقوية ترسانته الأدبية بالبلاغات والآليات الجمالية والفنية والفكرية وتقديمها للقارئ، إذ نجده يؤثّر نصّه بأدوات لغوية لها إستراتيجياتها، ولها منهجها الخاص الذي جاءت من أجله، وهذا ما يبرر وجود أدبيات متنوعة الغاية والأهداف، كالأدب التاريخي، الأدب الشعبي، الأدب النسوي، الأدب السياسي، أدب الخيال العلمي، أدب الرحلة، الأدب البوليسي... وما إلى ذلك من الأنواع الأدبية المختلفة.

وإذا ما أزعنا زاوية النظر قليلا، سنقف على أن الأفكار التي يصنعها الكتاب والفلاسفة والسياسيين والمؤرخين... قد تدعونا مرة للتفكير والانفتاح الفكري والحضاري، ومرة أخرى للقلق

وتدفعنا إلى محاولة فك شيفرات ما بين السطور.

فالأفكار المقدمة للمتلقي قد لا تخدم دائما الإنسانية وقد تغير الكثير من الأشياء لصالح منظمات تعمل جاهدة للقضاء على الإنسان وتدميره، فالأفكار الحرة والتنظير لها قد لا يحمد عقباه وقد يتحول إلى ظاهرة فكرية تعيق تطور الوعي الحضاري، وتنتج مجتمعات متوجسة مشلولة فكريا معادية للتنوير عاجزة عن مساءلة السلطة والمجتمع.

وقد يسعفنا هذا الطرح للوقوف عند نقطة خطيرة لقيت رواجا متسارعا ودعما قويا في أوساط المجتمع، وهي "أدب الهويات المهمشة"، أو ما يعرف بـ: "أدب الشواذ جنسيا"، والذي يعمل على تمثيل أصوات مجتمع الميم (*)، في أن لهم صوت دفين داخلي سيمصرخ في وجه المجتمع وكذا الأدب ويجب تقبله، ولن يبقى أدبا مسكوتا عنه وأن لهذه الفئة من المجتمع صوت ورؤية يجب احترامها وتقبلها معتبرين هويتهم الجنسية قد طالها التهميش وأن الوقت قد حان للالتفات لفئة "الجنس المهمش".

أخذت هذه المسألة تنحو منحى فلسفيا فكريا خاصة بوجود منظمات وجهات إعلامية ومذاهب تروج له وتنظر لآرائه وتسعى بعض الجهات إلى فرضها على العالم، والشيء الذي يدعونا للقلق أن هذه الظاهرة لم تعد مسألة موضوعة في دائرة الجنس وممارسته مع النوع الواحد؛ بل تخطت ذلك وأصبح لها دعم فكري يقوي موقفهم بحجج تكتسي زي الحريات والديمقراطية والتبريرات الفلسفية.

كما يزعم هذا النوع الأدبي أنه من واجب الإنسانية التفكير فيهم والنظر في وجودهم، وأن الهوية الجندرية أو ما يصطلح عليها بـ"اضطرابات الهوية الجنسية" (Gender Identity Disorders) أنها خيار إنساني شرعي يجب تقبله واحترامه ودعمه.

إن المسار الذي شهده الفكر الحضاري عبر التاريخ في فهم الإنسان والعالم، عرف عدة مراحل وفي كل مرحلة تنتهي فيها حضارة أو فلسفة معينة، تبني المرحلة التي بعدها فكرها ونظرياتها بالمرحلة التي قبلها، وهكذا يتم ربط السابق باللاحق والاستفادة منه وعدم إلغائه.

فالحرب التي شنها الفكر الإنساني الذي ندد دوما بالحضارة والتقدم والازدهار، نجده اليوم يحاول تفكيك المعاني وإلغاء المرجعيات، وإخواء المعاني الثابتة لبحث في المقابل عن معاني مغيرة لتتناسب مع نظرياتهم ورؤاهم المتضاربة والمتحورة باستمرار، وهو أمر يدعو حتما للقلق ويسوق لا محالة إلى الإلحاد ويزرع فكرة ألوهية الإنسان ويدعم الفردانية.

يرى الدكتور "عبد الوهاب المسيري" «أن المشروع الفكر الغربي ليس كافرا بالإله وحسب؛ وإنما هو كافر بالإنسان أيضا؛ إذ يعلن موت الإله، ثم موت الإنسان ككائن متميز عن الطبيعة، وينزع القداسة عن كل شيء، وينكر المعنى، أصبح الإنسان مركز الكون بسبب تميزه تفردته ووجوده كثرة في النظام الطبيعي، ووجود الله هو ضمان ألا تُسدّ هذه الثغرة، وألا تصفى ثنائية الإنسان والطبيعة» (8)

يوجهنا هذا الطرح الذي تقدم به الدكتور "المسيري" أن فكرة التحيز شكل من أشكال الإعاقة الفكرية والأخلاقية، وأنها تتعرج عن الفكر السليم والفطري للمفاهيم الثابتة والمطلقة كحقيقة وجود الله وربوبيته، وقد ينتهي هذا التحيز غالبا إلى إلغاء شرعية الخالق وتجاوزه.

إذن يسعفنا ما تقدمنا به للوقوف عند نقطتين مهمتين، الأولى أن غاية الأدب ودوره الكبير في تنمية الفكر والتعبير عن أفكار الإنسان ومحاولة الإجابة على أسئلته من خلال توثيق اللحظة الفكرية لديه من خلال أنشطته الإبداعية والفنية "شعر، رواية، قصة، مسرح، فن تشكيلي، موسيقى..." وهي دعوة ملحة لصناعة وعي حضاري.

أما النقطة الثانية تتجلى في إمكانية حفاظ الأدب عن مبادئه الإنسانية، وأن لا ينحاز لرؤى فردية أعلنت حربها على الإنسان والعالم، وهو ما قد يضعنا أمام فوهة مفتوحة من الأسئلة المستبطنة وفي مقدمتها:

هل غاية الأدب سامية دائما؟ وهل حاولت الرواية العربية أن تصنع وعيا حضاريا فاعلا بوصفها بنية معرفية ثقافية تطرح أسئلة الوجود الكبرى؟

سنحاول ملامسة جانبيين مختلفين في هذا الجانب، بأخذنا عينتين إبداعيتين مختلفتي الرؤية والتوجه، أحدهما وجودي خيالي والآخر واقعي اجتماعي.

3- تحديات الرواية في صناعة وعي حضاري جديد:

1-3 استشراف البديل الحضاري ووالدة النبي المخلص:

إن محاولة وجود وعي إنساني في الرواية هي محاولة حديثة هدفها تحليل الطبيعة الإنسانية، وأن هذه المحاولة يمكن أن تكون نقطة البداية بالنسبة لأهم جوانب الوظائف العقلية كلها، فالتجربة لا تحد أبدا ولا تكمل أبدا، والوعي هو وعي الإنسان بالتجربة الإنسانية، وهذا كاف بالنسبة للروائي، وهذا لا يستثني شيئا على نحو كلي، فهو يشمل الأحاسيس والذكريات، والمشاعر والمفاهيم، والأوهام والتخييلات (9)

فالمعرفة الإنسانية لا يمكنها تجاوز الجانب الواقعي والروحي للإنسان، من خلال تجسيدها لوقائع عقلية وحسية وصبتها في قالب روائي متنوع القضايا والرؤى الفكرية والوجودية وهذا ما يبرر شمولية الفن الروائي وعدم اكتماله وحاجته المتكررة دوما إلى التجديد والتجاوز والتجريب.

سنوقف عند عمل إبداعي جزائري معاصر، أُصدر في الألفية الثانية من هذا القرن، لكاظم جزائري حريص على تجسيد الأفكار والأيدولوجيات في جل أعماله الروائية، بما في ذلك رواية "هايل" التي تمثل نموذجا حيا حاول من خلاله الكاتب تأييد وعي حضاري جديد ورؤية فكرية مختلفة وفريدة.

"هايل" إصدار الكاتب الجزائري "سمير قسيبي" وهي من بين الروايات الجزائرية الجريئة التي طرحت العديد من الأفكار والأيدولوجيات والرؤى الفكرية المتنوعة من مرجعيات متفرقة وعديدة، كطرحه لمسألة الخلق، السياسة، التاريخ، الدين، الأسطورة...

والقارئ للرواية، سيلحظ حتما تعدد مرجعيات الروائي ومحاولة بثه ونشره لقضايا حضارية ووجودية مختلفة، فراح يصنع وعيا إنسانيا متجددا يراوغ لتسديد هدف الفكر الحضاري وشد القارئ من تلايبه ليعيد النظر في قضايا توهم أنه استوعبها وحان الوقت لتجاوزها على اعتبارها قضايا يقينية ولا مجال لوضعها في حيز الشك والبحث.

في جانب من جوانب الرواية، يشير الكاتب إلى مسألة وجودية عظيمة، وهي تنبؤ نهاية العالم ووالدة نبي مخلص، وانبعث روحه من جديد، فرسم معالم ظهور المسيح عيسى بن مريم في عباءة نبي جديد وهو الوافد، فجعله قبطان الجنس البشري ومرافقه إلى مصيره الأخير، معتبرا الحادثة خاتمة التاريخ التي أعلنت عن نفسها بظهوره ولا بد من مخلص لشقاء البشر الذي دام ملايين السنين.

في لعبة سردية فريدة امتزج فيها الخيال بالغرائبية والتشويق، عمل الروائي على إخفاء سيرة مخطوطات محرمة حُظر تداولها بين المؤمنين وألا تُعرف ولا تجد سبيلا للظهور، إذ لا بد من حظرها وترحيلها إلى المستقبل لتوفير سياقات ثقافية وحضارية وإحالتها للقارئ، فطلّت المخطوطات مخفية إلى أن عثر عليها السارد في القرن الثامن عشر مع مترجمها "ديلاكروا".

كان "هايل" (الابن الثالث لسيدنا آدم وحواء) المتسبب في انتقال الإنسان من جنات السماوات إلى جحيم الأرض، بإيحاء من الروائي أن الله -سبحانه وتعالى- وجد في نفي الإنسان إلى الأرض مكانا للعقاب بسبب خروجه عن طاعته، فظهرت الدنيا كمنفى وكان أول من أبعاد إليها هما "آدم" و"حواء"، ورغم نفيهما وإبعادهما عن نعيم الجنة، لم يتعظ الإنسان وراح مُنجراً خلف معاصيه معيدا تكرار أخطائه في كل مرة.

وفي رؤية تأويلية أخرى، يمكن افتراض أن الروائي حاول صياغة مشروع إنقاضي للإنسان وللمجتمع، فوجد أنه ليس من العدل ولا المساواة أن يحمل الخلف ما أخطأ فيه السلف، ورأى أنه من الجدير اقتراح حل للإنسان وتحريره من وزر ذنب لم يقترفه، فتخيّل ولادة نبي جديد حتى يجد حلا وخلاصا لمعاناة البشر، واستشرافا بديلا للواقع الراهن.

نخلق الروائي نبيا كما جاءت به المرويات الدينية (يسوع في المرجعية الإنجيلية، وعيسى في المرجعية الإسلامية) نخلقه حتى يفدي حياته لإنقاذ سلالة مجبولة على الخطأ، يقول "الوافد بن عباد" في رسالته المقدمة لأبناء "هايل" «يا أبناء هايل إنما أنا منكم مفرد بجسد بعثت فيه لكم لثلا تختلفوا، فانظروا وجها سينخره الدود بعد حين، فإن نسيتموه فلا تجزعوا، فكلّ راحل بغير دابة، وكلّ إليه مآله، ثم احفظوا ما لقنتمكم وأورثوه ذريتكم ليورثوه ذريتهم، حتى إذا جاء يوم القصف» (10)

وهنا أسدل الروائي الستار عن وجه النبي "الوافد بن عباد" الذي قدم وصاياه لأبنائه من نسل أبيهم "هايل" موصيا إياهم بصون أمانة ما أورثهم إياه، والمتمثلة في الكتابات والأناشيد فعمد الروائي على بعث روح نبي جديد من سلالة "هايل" المهمّش المعلق بين السماء والأرض، ورسم شخصيات أبنائه بأنهم كائنات مستنسخة عنه يعيشون نفس معاناة أبيهم "هايل" يتحملون عذاب خطيئة لم يكن لهم يد فيها، يسفحون الدماء، يزنون، يدخلون السجن، إيمانهم الروحي ليس مستقر، ينهارون، يبحثون عن ذواتهم وحقيقتهم بكل ما أتوا من قوة.

فكان النبيّ "المخلص" هو الحافز السردي لتأليف قصة مغيرة لبداية الخلافة الحضارية في الأرض وذلك بتخييل ابن الخطيئة "هايل" واستنساخ روحه وبقاءها شبعا يطارد أبناء آدم من بعده، إلا أن هذه المحطة تحمل بعدا وجوديا بالدرجة الأولى ولكنها لا تخلو من رغبة الكاتب في صناعة وعي حضاري وتقديم بديل ومخلص للبشرية، على أن يستيقظوا من خدرهم الفكري الذي طال سباته، والبديل السردي في تخيله لولادة النبي مخلص ليس غرضه الأسطورة، بل لخدمة غرض حضاري من شأنه أن يعيد النظر في مستقبل الإنسان وأن يسعى لخلق وعي جديد برؤية مخالفة ومغيرة لما جاءت به المسلمات.

2-3 المرأة وصناعة الفكر الحضاري:

قال الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

من بين التجارب الروائية التي نددت وأصرت على زرع وعي إنساني حضاري، رواية "أرض الآخرين" لـ "ليلي سليمان" وهي أحد الأفلام البارزة على الصعيد المحلي "المغرب" والعالمي، إذ حظيت مكاباتها بترجمات إلى لغات عديدة نظرا للإقبال المتزايد عليها وارتفاع نسبة مقروئيتها وخاصة في أوروبا.

رواية "أرض الآخرين" (Le pays des autres) الصادرة عن دار غليمارد الفرنسية Gallimard سنة 2020، والمتكونة من 336 صفحة من الحجم المتوسط، تسرد لنا الروائية تفاصيل دقيقة لحياة المغاربة إبان فترة الحماية الفرنسية على المغرب، بحيث بدأ الحبل السري التاريخي في الرواية منذ سنة 1935، لتتوالى الأحداث وتتصاعد بوتيرة متنامية، تسرد من خلالها قصة امرأة فرنسية تزوجت برجل مغربي شارك في الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش الفرنسي، وعند انتهاء الحرب وجدت نفسها في الأراضي المغربية للعيش مع زوجها وهنا تبدأ الأحداث بالتصاعد والبروز.

طرحت الكاتبة العديد من الأفكار وأسدت الستار على كثير من زوايا المجتمع المغربي والعربي بصفة عامة، على غرار قضية النسوية وزرع الأفكار ونقل معالم الحضارة الأوروبية وغيرها، فبدأ تشكيل ومحاولة صناعة وعي حضاري في الرواية بالبروز؛ ابتداءً من كل تلك النقاط التي رصدتها شخصية "ماتيلدا" وأعنتها بالرؤية والنقد، فكانت تُعَلِّمُ واقع المرأة المغربية بشكل مخصوص، وواقعها هي بعد أن أصبحت تنتمي إلى هذا العالم بعد قرارها الزواج من "أمين" ورحيلها عن بلدها الأم وبهذا اختارت حياة لا تشبه الحياة الأوروبية الهادئة والمريحة في شيء.

تقول الروائية في هذا: «وفي تلك اللحظة بالذات، أدركت أنها غريبة، امرأة، زوجة، كائن تحت تصرف الآخرين، كان أمين فوق أرضه، من يفسر القواعد، ومن يحدد طريق السير، ومن يرسم حدود الحياء والنجل» (11)

جعلت الكاتبة من شخصية "ماتيلدا" رسول التنوير الحضاري للحياة في المغرب، فحققتها بأفكار كبرت عليها فلم يكن على "ماتيلدا" في فرنسا العمل من طلوع الشمس حتى غروبها، ولا اعتنائها بالرجل ولا مشاورته في كل صغيرة وكبيرة، تروي معبرة عن حالتها بعد مضي فترة على إقامتها

«عندما وصلت إلى المغرب، كانت لا تزال تشبه طفلة فكان عليها أن نتعلم في أشهر معدودة كيف تتحمل الوحدة والحياة الزوجية، وأن تعاني عنف زوج وغربة بلد» (12)

كما أبدت الروائية إعجابها بالمغرب، تروي واصفة أجواء قرية "مكّاس" المغربية «في الرسالة حكّت عن الطرازين والنحاسين وخراطي الخشب، وعن معرض قارئات الفأل والمعالجين الشعبيين» (13)

لم تنكر شخصية "ماتيلدا" إعجابها بالحياة الديناميكية في المغرب، لكن سرعنا اعتادت على تلك الحياة، وأصبحت مشاهد الطبخ، والأعياد، والمناسبات الدينية والأعراس،... أمرا روتينيا، لتنتقل بعدها إلى نقد الواقع ومحاولة إصلاحه.

وبالإجمال حاولت الكاتبة أن تنقل الوعي الحضاري الأوروبي وتطبيقه على المحيط الاجتماعي العربي، نظرا إلى مرجعية عرقها الأوروبي الذي عرف في مرحلة سابقة النهضة الأوروبية في العصور الوسطى وبداية معالم العالم الحديث بالبروز، وذلك بظهور فلاسفة وعلماء رأوا أن الكنيسة لم تعد المشرّع الأول على حياة البشر.

- تكريس فكرة التعليم في المجتمع المغربي:

الحضارة ليست تراكما ماديا فحسب؛ بل نظام من القيم والمعرفة والتقدم العقلي، والتعليم هو الوسيلة الأهم لنقل هذا الوعي وتوسيع دائرته عبر الأجيال، وعلى أساس هذا المنطلق؛ ألحت الروائية على ضرورة تعليم الأطفال وبناء عقل حضاري، والتحاق الفتيات إلى المدرسة وهو ما ظهر عندما تحدثت ماتيلدا إلى حماتها بضرورة التحاق "سلمى" أخت زوجها بالمدرسة «حاولت ماتيلدا أن تقنع مي لالة بأن سلمى يمكن أن تغنم بفضل التعليم استقلالها وحريتها، غير أن العجوز عقدت حاجبها وتجهّم وجهها واغتاضت من النصرانية التي توجهت إليها بالنصيحة قائلة: ما الضرر في أن تمضي سلمى وقتها في البيت نتعلم حشو الأمعاء ثم ترتقها بدل تسويد صفحة الدفتر» (14) إلا أن التركيبة الذهنية لأم سلمى أبت عن فعل التعلم والتحاق ابنتها بصفوف المدرسة، «فهذا

القصور مردّه إلى عوامل اجتماعية تتمثل في ضغوط يضعها المجتمع أمام المرأة لكي تتمثل للدور المحدد الذي رسم لها والذي لا يتناسب مع الحياة العملية إذا قورن بدور الرجل» (15)

وفي صدمة أخرى تلقتها البطلة من ابنتها "عائشة" التي صارحتها بعدم رغبتها في مُزاولة دراستها تتحدّث شخصية عائشة: «لا أريد الذهاب إلى المدرسة أريد أن أبقى معك مي لالة لا تعرف القراءة ويطو وطامو كلتاهما لا تعرفان كذلك، فإذا سأفعل بها؟» (16) إذ أكدت من خلال الطفلة عائشة أن المجتمع بإمكانه أن يُورث طريقة تفكيره بطريقة سريعة، وأن يسمم أفكار الأطفال حتى وإن لم يتحدّثوا أمامهم، فالعتياد على نمط حياتي مغلق لا يقبل التجديد والمجازفة بالتجربة، لن تستطيع اختراقه الحوارات والإدلاء بالآراء.

كما أبانت الروائية لنقطة التأثير والتأثر على مستوى الأفكار، وزرع أيديولوجيات في ذهن المجتمع، بحيث كانت "ماتيلدا" تؤثر على أخت زوجها وتحبّها أن الحياة لا تستقيم بهذه الوتيرة، وأن عليها التعلم واكتساب مهارات جديدة، وقد ظهر انعكاس تل الأفكار جليا على شخصية سلمى «فلم تعد تطيق تلك الأساطير البلهاء والمعتقدات المتخلفة التي كانت ترددها "مي لالة" دون كلل، لم تعد سلمى تنصت إليها، ولو لم تكن تخشى الإخلال باحترام والدتها، لوضعت إصبعها في أذنها (...) كلها حدّرتها أمها من الجن والسحر وعين القدر السوداء، لم يكن لدى "مي لالة" جديدا لتقدّمه، حياتها دوران في دائرة مغلقة» (17) فأصبحت سلمى أكثر وعيا وعاد بإمكانها التطلع ورصد التناقضات وأن تلك الحوارات التي ألقت سماعها من أمها ومن النساء المحيطات بها، هو إهدار لقدراتها وإمكاناتها الأنثوية.

كانت الروائية مدركة أن العامل النفسي تجاه تربية الأبناء، له دور مهم في تطوير قدراتهم العقلية والنفسية، «فتظهر شخصية الوالدين في تشكيل شخصية الأبناء باعتبارهم يملكون إمكانيات أكثر تأثيرا على نموهم النفسي، فهم من ناحية الموصولون الأساسيون للمفاهيم الثقافية، ومن ناحية أخرى المهيمنون على تنشئة الأبناء بشكل مباشر وفعال» (18) ولهذا كانت الشخصية البطلة شديدة الحرص على تعليم ابنتها "عائشة" والتي كانت تحظى بأعلى العلامات في المدرسة.

كما صورت الروائية من خلال الشخصية المحورية "ماتيلدا" حبها الشديد للقراءة ومطالعة الكتب والروايات، في إشارة منها أن القراءة هي السبيل الوحيد للخروج من بوتقة الجهل والتخلف والاستبعاد، وحققت نجاحا بمرور سنوات إقامتها في المغرب، بفتحها مستوصفا للعناية بالنساء والأطفال رغم الإمكانات المادية المتوفرة لديها، «كانت تستشيط غضبا ضد قدرية البدويين الذين يتوكلون على الله في كل أمر، ولا تستطيع أن تفهم استسلامهم للقدر» (19)

استندت الروائية على بعض من عينات شريحة المجتمع المغربي، لتصف واقع المرأة المغربية ومعايبتها لذاتها وللعالم، محاولة تفكيك النظام الأبوي بفضح نقائصه وعجزه عن تربية أبنائه بالطريقة التي يجب أن يُعامل بها الطفل كما أوصى بها الدين وعلم الاجتماع، عبرت عن هذا في تصويرها لمشهد تربية الأطفال في المغرب: «كانت تعلم أن زوجها سيؤنبها، لا يحب طريقته في تربية الطفلين وتعاطفها مع أحزانهم ومشاعرهم، كان يتهمها أنها تجعل منهما كائنين ضعيفين بكائين خصوصا ابنه (...) لا يُربي الرجل بهذه الطريقة، وليس هكذا نمنحه الوسائل لمواجهة الحياة» (20) في حين اقتصر حضور المرأة في الرواية لمجرد كائن حي لا يكل ولا يمل جسد هزيل أنهكته متطلبات الرجل اللامنتهية، وتقديم المتعة وملذات الحياة للآخر، وهو ما رسمته الكاتبة لأجواء شهر رمضان الكريم.

إن مشروع كتابة "أرض الآخرين" محدد الهدف والغاية منذ بدايته، آمنت الروائية بشكل يقيني أن بناء فكر حضاري يبدأ أولا بصناعة المرأة بجعلها منتجة للمعرفة، وحاملة لقيم جديدة تقاوم التخلف والجمود الاجتماعي، فإذا أحسنت توجيه فكرها بالشكل المطلوب، تكون قد اختصرت عمرا في بناء الفئات الأخرى.

ولهذا اتجهت إلى طرق باب عالم المرأة باعتبارها الأساس الرصين والمعلم الأول للإنسان، ومخلصه من عتمة الرحم والألم إلى عالم أكثر نورا وإضاءة.

خاتمة:

- 1- إن غاية الأدب تشكيل وعي جمعي وبناء إنسان متحضر، بمعالجته لقضايا الإنسان واحتضانه لكل شيء يخصه.
- 2- يعتبر الجنس الروائي أكثر الأنواع الإبداعية استحضارا وإحاطة بالجوانب الفكرية والأيدولوجية.
- 3- أثارت الرواية الأسئلة الكبرى التي تلامس القيم الفكرية والجمالية، محققة توازنا بين البعد الجمالي والفكري.
- 4- اشتغلت الرواية منذ بداياتها بالاهتمام في بناء الحضارة الإنسانية من خلال الإنسان الواعي والمثقف الذي آمن أن الأدب وسيلة للنهوض بالإنسان إلى عوالم أكثر تحضراً.

الهوامش والمراجع:

- (1) مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (د ط)، سورية، دمشق، 1986، ص 28.
- (2) مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (د ط)، سورية، دمشق، 1986، ص 28.
- (3) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 29.
- (4) ينظر، مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 31.
- (5) ينظر، مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 33.
- (6) ينظر، عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (د ط)، (د.ب)، 1997، ص 180.
- (7) عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (د ط)، (د.ب)، 1997، ص 173-174.
- (*) مجتمع الميم: هو مجتمع مثلي الجنس بميولهم الجنسية المختلفة، وجاءت تسمية الـ "ميم" من الحرف الأول في الكلمات التالية (مثلي ومثلية الجنس، مزدوج الجنس، متحول الجنس، متسائل)، يقابله الاسم الأصلي بالإنجليزية LGBT وهو

اختصار للكلمات التالية (Lesbian, Gay, Bisexual and Transgender) وتم إضافة فئة أخرى أحياناً وهي المتسائل عن الهوية الجنسية أو المتحير، ويشار إليه اختصاراً بالحرف Q من الكلمة Questioning.

ينظر: <https://www.hellooha.com/articles/1787> (20 جوان 2025، 22:36).

- (8) سامي العامري، الإلحاد في مواجهة نفسه، روايت، (د ط)، الكويت، 2021، ص 47.
- (9) ينظر، روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، تز: محمود الربيعي، دار غريب، القاهرة، مصر، 2000، ص 33.
- (10) سمير قسيبي، رواية هابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2013، ص 188.
- (11) ليلي سليمان، أرض الآخرين، تز: مصطفى الورياغلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط1)، 2021، ص 18.
- (12) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 36.
- (13) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 24.
- (14) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 28.
- (15) ناهد رمزي، سيكولوجية المرأة "قضايا معاصرة"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (ط2)، 1999، ص 19.
- (16) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 55.
- (17) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 108.
- (18) ناهد رمزي، سيكولوجية المرأة "قضايا معاصرة"، ص 21.
- (19) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 164.
- (20) ليلي سليمان، أرض الآخرين، ص 53.